مجلد الغلاف

الدعوة الى الاصلاح

﴿ هذه رسالة حررها الشيخ السيد محمد الخضر بن الحسين ﴾
احد المدرسين بالجامع الاعظم جامع الزيتونة
والمدرس بالمدرسة الصادقية

طبعت على نفقة السيد محمد العروسي بن الحسين بنهج السرايرية

(طبع بالمطبعة الرسمية العربية بتونس)

عام ١٣٢٨
١٩١٠

﴿ فهرست ﴾

الدعوة الى الاصلاح

(هذه رسالة حررها الشيخ السيد محمد الخضر بن الحسين)

احد المدرسين بالجامع الاعظم جامع الزيتونة
والمدرس بالمدرسة الصادقية

طبعت على نفقة السيد محمد العروسي بن الحسين بنهج السرايرية

(طبع بالمطبعة الرسمية العربية بتونس)

عام ١٣٢٨
١٩١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي رفع من منازل العلماء المرشدين ، واعلى كلمتهم في صدور الامراء المصلحين ، والصلاة والسلام على من قلدنا فرائض هذا الدين وسننه ، ودعانا الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . ثم الرضا عن آله واصحابه الذين هدوا الى صراطه المستقيم ، ونشروا لواءه السامي بالحجج الباهرة والاسلوب الحكيم . اما بعد فكثيرا ما نرى الباحثين في شان الاسلام يكتبون ويتحاورون في العلل التي سرت الى الامة فثبطتها عن التقدم في حياتها الاجتماعية ونامت بها في مضاجع الغفلة حتى سبقتها الامم بخطوات واسعة ، ويوردون في نتيجة بحثهم اسبابا شتى اذا تتبعت تفاصيلها وامعنت في حال ما هو صحيح منها وجدتها ترجع بجملتها الى التهاون باحكام الشريعة وفتور عزائمهم عن المطالب التي ندبت للمحافظة عليها

ومن التفت ينظر في اسباب تقاعسهم عما ارشد اليه الدين من وجوه الاصلاح ليتلافى خطوبها ويمهد عقباتها سبق اليه في حسابها تقصيرهم في التواصي بالحق وعدم صرف العلماء عنايتهم الى واجب الارشاد

حضر هذا الخاطر في صدري فاستثار الهمة واخذ براس القلم يستميحه الى الكتابة في غرض الدعوة الى الاصلاح لعله يبسط في هذا الموضوع جملا من مطوياته ويملك بتاييد الله زمامه

﴿ الحاجة الى الدعوة ﴾

من حكمة مبدع الكائنات ان اودع في فطرة الانسان قوة يعقل بها طرق الصلاح والفساد ويفقه بها الحق ليحققه والباطل ليقطع دابره ولكن العقل وحده لا يستقل بتمييز المعروف من المنكر وليس في طوقه ان يسير باعمال البشر واحوالهم على نظام لا عوج فيه فانه وان بلغ في الادراك رشده قد يعزب عنه وجه المصلحة ولا يهتدي الى عاقبة العمل فربما يمسك عن الامر وهو عمل صالح فتفوته منفعته او يقترفه وهو عمل سيئ فيحيق به ضرره • ولا يمتري ذو بصيرة ان لو يتصدى احد الرجال المشهود لهم بسعة النظر وصفاء القريحة لانشاء اداب تستنير بها العقول والاخلاق ونظامات تحفظ بها الحقوق والمعاملات بدون ان يقتبسها من انوار الشرائع او القوانين المستمدة منها لراينا في جملة قضاياها ما ندرك اختلاله لاول وهلة ونعلم يقينا واضحا ان لو تمسكت به امة من الامم لاخطات سبيل رشادها وسقطت في متلفة وعناء • وكذلك اتفق لكثير من كبار الفلاسفة صنعوا في سياسة قومهم قوانين واهية فعثرت بهم الى درك الهوان وبئس القرار • وامثلتهم مضروبة في كتب التاريخ قديما وحديثا

واذا شعرت بعض النفوس بوجه الحكمة فقد يستولي عليها

الكسل او تستحوذ عليها دواعي الهوى فتترك امرا صالحا او تاتي عملا منكرا ولا تبالي بما يوقعها فيه الترك او الاقدام من الخسران والشقاء الطويل

واذا لم يخالط الكسل عظامهم ولم يدخلوا في اسر شهواتهم فقد يحدث بينهم الخلاف ويطغى بهم التنازع الى الفتن والمغالبة فان عقولهم غير متساوية في اصابتها لدى البحث عن الحقائق لا بحسب فطرتها ولا بالنظر الى استعدادها المكتسب من التجارب وترددها الى العلوم فيستحسن الرجل عين ما يستقبحه غيره بل الرجل الواحد يرى الامر حسنا في حال فان لم يوافق غرضه في وقت آخر عده قبيحا . وكثيرا ما يشتمل الشيء في الواقع على وجهي الاثم والمنفعة فيريد بعضهم جلب منفعته فيسعى الى اقامته وتتعلق رغبة اخر بدرء ما فيه من الفساد فيبطله و ربما ينظر الانسان الحادثة تنزل بغيره فيقضي عليها براي ولو عرضت له نفسه وادرك مقدار تاثيرها لخطر على قلبه انها تستوجب حكومة اشد مما قضى به اولا او ادنى

ولما كانت البصائر تضعف والاهواء تغلب والعقول تتفاوت اشتدت حاجة الناس الى مصلح الادمي يبين لهم مواقع الحسن والقبح في احوال نفوسهم واعمالهم الاختيارية وينقذهم من مصارع الغفلة والهوى ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فبعث الله الرسل عليهم السلام بوظيفة التعليم والتذكير والقضاء عند المشاجرة

﴿ الدعوة في نظر الاسلام ﴾

لما كان الخطاب بشريعة الاسلام يتوجه الى سائر الخليقة احتاج الناشئون بعد زمن النبوءة كما افتقر النازلون بمواطن بعيدة عن مهبطها الى من يتلو عليهم آياتها ويلقنهم آدابها ونصائحها فاورث الله الذين اوتوا الحكمة ما اوصى به الرسل عليهم السلام من الدعاء الى ما فيه صلاح في الدين او منفعة في الدنيا قال تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) فافادت هذه الآية ان الدعوة الى الخير فريضة لا يسقط واجبها عن رقاب الامة إلّا اذا تكفلت به طائفة منهم حتى اذا ما اعوز القائم بهذه الوظيفة مدد يتزود به في سبيل هذا المهم او بلغة يسد بها بعض ضروراته تعين على اولى القدرة مساعدته ، واثبات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله) لا يويد مذهب القائلين (ان الدعوة فرض على الاعيان) فان الخطاب بفرض الكفاية يوجه الى سائر الامة بقصد افهامهم واعلامهم ويكون التكليف والالزام لطائفة تتفق الامة على تعيينها او تعين نفسها ان شاءت

لجميع الامة

مدح الله القائمين بوظيفة الارشاد في آيات متعددة ووسم الذين يخفون الحكمة في صدورهم ويطوون السنتهم عن بيانها بوسم اللعنة الى ان يتوبوا ويتداركوا اصلاح ما اهملوه بسكوتهم عنه قال تعالى (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد

ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وهذه الآية وان نزلت في وصف فريق من غير المسلمين فحكمها وهو استحقاق اللعن لا يقف عند حدهم بل يتناول كل من اوتي معرفة بآيات الله او قبض قبضة من اثر هدايته فابقاها في صدره وامسك عن تعليمها فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في وروده . والحق الذي لا يسوغ للعالم كتمانه ما ينبني على العلم به فائدة في صحة اعتقاد او حسن خلق او استقامة عمل فان لم تترتب عليه ثمرة فيما ذكر فلا حرج عليه في احتكاره والسكوت عن بيانه حكى الشيخ ابن عرفة في درس تفسيره انه دخل على شيخه ابن الحباب وجعل ينظر في كتبه فمنعه من استيفاء النظر فيها وقال له للشيخ ان يمتاز عن طلبته بزيادات لا يخبرهم بها

وتاول بعضهم في عهد الصديق قوله تعلى (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) على خلاف ما اريد منه فقام رضي الله عنه خطيبا وقال انكم تقرءون هذه الاية (يايها الذين ءامنوا عليكم انفسكم) وتضعونها في غير موضعها وانني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا راوا المنكر ولم ينكروه يوشك ان يعمهم الله بعقاب . وجرى ذلك التاويل في اوهام بعض العامة الى هذا العهد فاذا امرته بمعروف او نهيته عن منكر القى عليك الاية كالمستشهد بها على انك تخطيت حد الادب ورميت بكلامك في وصمة الفضول ومنهم من يتلوها في مساق الاعتذار وتبرئة ساحته من اللائمة متى شهد منكرا ولم يغيره بقدر ما يستطيعه من يد او لسان او مباحة مكانه الذي هي امارة التغيير بالقلب .

والمعنى الذي تطابق به الاية غيرها من الايات الآمرة بالدعوة انكم اذا استقمتم كما امرتم وقمتم بالواجبات التي من جملتها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يضركم من اعرض به هواه وجمح به في واد من الغواية

ومن العناية بسنة الدعوة شرع الخطب ايام الاعياد والجمعات وعدها من شعائر الاسلام ليلاحظ الخطيب في اختيار موضوعها الاحوال الحاضرة ويطرق بها ابواب المطالب الكافلة بشرف الامة في الدنيا وسعادتها في الاخرة وذهل كثير من الخطباء عن هذه الحكمة فالتزموا لكل شهر خطبا معينة يسردونها سردا من غير التفات الى ما يقتضيه حال الناس في التعليم او التذكير

ولا تقدر الدعوة الواجبة بعدد او تضبط بقدر من الزمن اذا قضاه الداعي خرج عن عهدتها وانما يعتمد في ابلاغها واستئنافها مرة بعد اخرى على رجاء تاثيرها وحصول المقصود منها ، ونتزع من هنا الى ان الصواب مع عمر بن الخطاب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم في حال وجعه (ايتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده) وقال عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا ، فلو لم يستصوب صلى الله عليه وسلم راي عمر لعاد الى امرهم بذلك فقد عاش بعد هذا المجلس اياما

واذا دعا العالم طائفة الى اصلاح شان من شئونهم فعتوا عن امره واستكبروا عن اجابته حتى ايس من انابتهم واعتقد بعدم الفائدة من تذكيرتهم خلصت ذمته من امانتها ولا جناح عليه ان يقف عند هذه الغاية ، وحمل بعض المفسرين على هذه الحالة مفهوم

الشرط في قوله تعلى (فذكر ان نفعت الذكرى) ولا يتحقق الداعي بعدم نفع الذكرى وضياعها كصيحة في فلات إلّا اذا وجه بخطابها الى قوم معينين مرة بعد اخرى حتى عجم عيدانهم واطلع على ما التفت عليه نفوسهم من التقليد في الباطل ونبذ الحقيقة في اي صورة ظهرت ٠ اما من دابه النصيحة العامة كخطباء المنابر وارباب الصحف فلا يحق لهم ان يهجروا الموعظة في امر وان شهدوا قلة تاثيرها في قوم باعيانهم فما يدريهم ان تصادف بعض النفوس المطبوعة على حب الخير فتمسك بداعيتها وتقودها الى سواء السبيل قال تعلى (وذكر فان الذكرى تنفع المومنين) ولطالما بلونا الناس فالفيناهم يستخفون بالامر تلقى له الخطبة او تولف فيه المقالة المفردة فاذا تتابع الترغيب فيه او التحذير منه ولو من المرشد الواحد تربى في قلوبهم الاهتمام بشانه ونهض بهم العزم الى العمل به او الاقلاع عنه

لا يقتصر الداعي في نصحه لقومه وتذكيرهم بالعواقب على الواحدة ونحوها ولا يتخذه شغلا يستمر عليه في سائر احواله حتى يبرمهم ٠ روى البخاري في صحيحه ان عبد الله بن مسعود كان يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل يا ابا عبد الرحمن لوددت انك تذكرنا كل يوم فقال اما انه يمنعني من ذلك اني املكم واني اتخولكم (اتعهدكم) بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا فيها مخافة السآمة علينا

وتتاكد المبادرة الى النصيحة فيما تفوت المصلحة بتاخير الدعوة اليه ويشعر بهذا قوله تعلى (وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى

قال يا قوم اتبعوا المرسلين) وقوله تعلى (وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين) فقوله (من اقصى المدينة) اعلام بعنايته وكمال رغبته في بذل النصيحة حيث لم يثبطه بعد المسافة عن السعي اليها والوفاء بحقها وقوله (يسعى) تذكرة لدعاة الاصلاح وايقاظ لهم كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم و يسارعوا الى النصيحة جهدهم لان السعي في لسان العرب يطلق بمعنى العدو والمشي بسرعة ٠ وما يقوله بعض اهل العلم من جواز السكوت عن العلم الى ان يسال عنه فيحمل على المسائل التي لم تدع الحاجة الى معرفتها في الوقت الحاضر حكى القاضي عياض في كتاب المدارك ان سحنون وصاحبيه عون بن يوسف وابن رشيد دخلوا على اسد بن الفرات فسالهم عن مسالة فابتدر بجوابه صاحبا سحنون وسكت سحنون فلما خرجوا قال له صاحباه لم لم تتكلم فقال سحنون ظهر لي ان جوابكما خطا و بين لهما ذلك فقالا له لم لم تتكلم بهذا ونحن عنده فقال خشيت ان ندخل عليه ونحن اصدقاء ونخرج ونحن اعداء قال القاضي وسكت سحنون حين علم ان القضية لا يفوت امرها ولو علم ذلك لبادر بما ظهر له ✗وذكروا ان قيام الواحد بهذه الفريضة كاف واستشهدوا بقوله تعلى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) قالوا لان الطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه ٠ ولكن لتعدد القائمين بالدعوة وتظاهرهم عليها وقع في النفوس المختلفة المشارب وتاثير لا يحصل بدعاء الفرد وان كان عظيما ولهذه المزية سال موسى

تعدد الدعاة في البلد الواحد

عليه السلام مشاركة اخيه هرون له في الرسالة حين قال ، (واجعل لي وزيرا من اهلي هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري) ومن شواهد هذا ان عيسى عليه السلام بعث الى اهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم الى الايمان فقابلوهما بعناد وتكذيب فاضاف اليهما ثالثا يؤيد بعثهما قال تعلى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون) ويعتبر في تعدد الدعاة حال الامة في سهولة مقادها واستعدادها لتلقي الارشادات كما يراعى ما تتعلق به الدعوة من المطالب فيكفي في هداية النفوس المطمئنة لسلطة الدين ما لا يكفي في ارشاد المارقين واهل البدع ويغني في تعليم الاحكام العملية ما لا يغني في اصلاح العقائد وتقرير اصول الايمان

وانما تفيد كثرة الدعاة عند اتحادهم وتعاضدهم على النظر في المصالح ونصرة الحقيقة في نفسها وبذلك اوصى النبي صلى الله عليه وسلم ابا موسى ومعاذ بن جبل حين بعثهما الى اليمن قال لهما يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا . ويشعر بهذا الشرط التعبير عن الدعاة باسم الامة دون القوم في قوله تعلى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير) الآية قال القفال الامة القوم المجتمعون على الشيء الواحد يقتدي بعضهم ببعض ماخوذ من الائتمام . وهو الوجه في ايثار التعبير به ايضا في قوله تعلى (ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون) فان لفظ القوم يطلق في مجاري الاستعمال على عدد اقل مما يطلق عليه لفظ الامة وهو من هاته الجهة انسب

بدعاة الاصلاح لقلة عددهم ولفظ الامة اليق بسائر الافراد لكثرتهم ولكنه اختير للدعاة اسم الامة لان اشعاره بمعنى الاتحاد اقوى مما يشعر به لفظ القوم

ويجزى في ابلاغ النصيحة وتحرير الذمة من واجبها ان يوديها العالم بوسيلة الكتابة فقد ارسل النبي صلى الله عليه وسلم بكتب يدعو فيها بعض الملوك الى الاسلام وبعث سليمان عليه السلام بكتاب الى ملكة سبا وقومها حين بلغه انها وقومها يسجدون للشمس من دون الله

وفي الدعوة بالكتابة فائدة البعد عن ساحة السفهاء والتخلص من ان يواجهوه بالسخرية والاذى وربما كانت اوقع اثرا وابعث على القبول اذا كان الداعي منشئا وله المقدرة على تاليف الكلم واخراجها في اساليب باهرة وفصاحة يقصر دونها النطق باللسان

﴿ شرائطها ﴾

اطلق الاسلام في امر الدعوة فاعطى لكل مكلف الحق في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا فرق بين شريف ووضيع حتى اذن لادنى الناس منزلة ان يصعد الى مقام الامير الاعلى ويجادره بطلب الاصلاح . ولا يستقل بهذا الواجب ارباب الولايات فقد كان آحاد الرعية في عهد السلف يامرون الولاة وينهونهم روى البخاري في صحيحه عن طارق بن شهاب قال اول من بدا بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال الصلاة قبل الخطبة فقال قد ترك ما هنالك قال ابو سعيد الخدري اما هذا

فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من راى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) اي اقل ثمرة. وجاء في حديث آخر روى في الصحيح ايضا ان ابا سعيد هو الذي جذب بيد مروان حين رآه يصعد المنبر فرد عليه مروان بمثل ما رد به على ذلك الرجل. ولعلهما قضيتان كما قال شارحوا الحديث احداهما وقعت لابي سعيد والاخرى كانت من الرجل بحضرته ويضارع هذا ما روى مسلم في صحيحه عن كعب بن عجرة قال دخل المسجد وعبد الرحمان بن ام الحكم يخطب قاعدا فقال انظروا الى هذا الخبيث يخطب قاعدا وقد قال الله تعلى (واذا راوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما). واعتبر في هذا المساق بقوله تعلى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقوله تعلى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) فالتعبير بصيغة التفاعل في قوله (تواصوا) وقوله (لا يتناهون) يدل على تبادل الوصاية والتناوب في النهي ويشير الى ان الشخص الذي يوصي بحق او ينهى عن منكر لا يصعد به شرفه ويتعالى به عن طاعة ذلك المامور نفسه والتادب بعظاته اذا دعاه الى صالح او النزوع عن باطل. وابتنى على هذا اطلاق الفقهاء لاحد الخصوم ان يخاطب القاضي بنحو اتق الله واذكر الله ولم يعدوه من اللمز بقلة التقوى. ولو اجري عليه حكم الجفاء الذي يستحق به الادب او التعزير لاتخذه الحاكم المستبد ذريعة الى كف الرعية وسد افواههم عن احضاره النصيحة واستلفات نظره الى صالح الاعمال

انما يعتمد في شرط المصلح على صفة العلم بان يكون على بينة من حكم ما يامر به او ينهي عنه · تلك المزية المومأ اليها بقوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقوله تعالى (ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني)

والناس في ادراك الحقائق طبقات

منهم من يشعر بوجه الحق فيستولي عليه نظرا وعلما و يمكنه ان يضع العلامات الدالة عليه بالصراحة ليهتدي بها المقتدون على اثره · ولا تبعث امة من مرقدها وتمتطي غارب عزها إلّا اذا نبتت فيها نابتة من اهل هاته الطبقة

ومنهم من لم يبلغ في قوة الشعور وسرعة الخاطر الى ان ينتبه الى جهة الحق بوجدانه ولو ترك بحاله وخلي ونفسه لتمادى في جهالة واستمر على غواية ولكنه يحس بالكلمة تشير الى موضعه فيرمي ببصره اليه و ينهض الى نصب الدلائل الموصلة الى معرفته

و بعضهم لا يشعر بالحق من تلقاء نفسه ولا يتمكن من اقامة الشواهد عليه لو انبائه بجهته فيفتقر الى ان تاخذ بيده وتقوده الى ان يرى شخصه راي العين إلّا انه انطوى على ذوق صحيح وفكرة سليمة فلا يمكنك بعد ان يفقه الرشد و يستقر فواده على معرفته ان تنتزعه منه وتغرس في مكانه ضلالا

ومن الناس من يتبع الدعاة و يلقى زمامه بايديهم فيقلدونه من الواجبات ما يريدون بدون ان يكلفهم الدليل على صحة قضية او بيان الوجه في حسن عمل وانما يعتمد في الاقتداء بهم على اوصاف كمال يشاهدها او تبلغه عنهم برواية من يثق به كالجد

في الطاعة والزهد في لذائذ الحياة وكثرة الاتباع من العلماء الى غير ذلك من الاحوال التي يجري في الاعتقاد انها لا تنفك عن الحكمة في القول واصابة الراي . ولو يرجع مرشد اهل هاته الطبقة عما ندبهم له من الاعمال واودعه لديهم من التعاليم لنفضوا ايديهم واعتقاداتهم منها وانقلبوا معه الى تقليد مذهبه الجديد

ولا اجمع في شمل هولاء طائفة يستندون في اتباعهم الى خصائص في قدوتهم لا تستلزم الرشد في النظر ولا تستدعي ان يكون صاحبها على هدى مثل فصاحة المنطق وشرف النسب وصباحة الوجه وسعة الرزق والتحامه بعشيرة او اعتضاده بحامية

ولا ينفرد بواجب الدعوة اهل الطبقة العالية وما يقرب منها فان من الحق ما يكون واضحا بنفسه او بدليل متواتر بحيث لا يتاتى فيه نزاع ولا يحتاج الامر فيه الى تقرير حجة او ازالة شبهة كفريضة الصلاة وفضيلة العدل ومثل هذا انما يهمله مستطيع القيام به لآفة سهو او داعية هوى فيحق لكل مسلم وان كان من اهل الطبقة السفلى ان يذكر فيه غيره ويوصيه بحفظه وان كان من اهل الطبقة العليا . واما ما لا تدركه العامة من الحقائق ويضطر الداعي في بيانه الى نصب الدلائل ومصارعة الشبه فانما يقوم بالدعوة اليه العارفون باسرار القضايا النظرية القادرون على تحرير مباحثها وحسن التصرف في سياق ادلتها

وزاد بعضهم في وصف الداعي ان يكون صالحا في نفسه مستقيما في سيرته وهو شرط صحيح بالنظر الى انتفاع الناس بارشاده وانقيادهم لاوامره فانهم على ما نرى ونسمع لا يتاثرون بموعظة مرشد ولا

يقتدون بمقالته إلا اذا حسنت عقيدتهم بامانته وابصروا حالته الظاهرة تنطبق على رسم نصيحته كالمثال يضرب لبيان القاعدة وقد تبرا شعيب عليه السلام من قصده الى مخالفة قومه وارتكاب ما حذرهم منه بقوله (وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه) وجاء في كثير من الآيات المسوقة في شرف الدعوة ذكر صلاح الداعي في نفسه واستقامته في عمله قال تعالى (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا) وقال تعالى (هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم) وفي ذلك الكتاب ما فيه تقريع وتعجب من حال الذي يتلو الموعظة و يبسط لسانه بالامر بالمعروف وهو تارك للعمل به ناحية قال تعالى (اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون) وفي هذه الآية دلالة على ان من ارشد غيره الى صالح وهو ماسك يده عن فعله او حذره من مفسدة وهو لا يغادر موضعها فقد خالف مقتضى الحكمة ودخل في وصف الذين لا يعقلون

ويضيف آخرون الى شرط النهي عن المنكر اجماع العلماء على انكاره ويجعل للمصلح فسحة في السكوت عما جرى فيه خلاف بين اهل العلم وكثيرا ما ينقلونه في موضع الاعتراض والتخطئة لمن يصدع بالنهي عن امر هو عند المحققين بدعة او عمل غير صالح · كلا ان اخذ هذا الشرط على اطلاقه غير سديد فان من الاقوال ما ينزل به الضعف الى مكان سافل فلا يحسن السكوت عنه وابقاء الرجل قابضا بعروته المنفصمة كالقابض على حبال القمر لا ترفعه الى صفوف الفائزين ولا تخطو به خطوة في سبيل النجاة ولهذا

اوجب جماعة من الفقهاء الحد في بعض المنكرات ولو على من عمد لفعلها تقليدا للقائل باباحتها حيث انحط في مدركه وضعف الى حد لا يثق به من له ادنى فهم في دلائل الشريعة

﴿ الاخلاص فيها ﴾

الغاية من الدعوة حفظ العالم وانتظام شئونه على منهج قويم ، فاذا وجه الداعي قصده الى هذا الغرض ووضعه نصب عينه دائما ثبت على مبدئه واطرد في خدمته على سيرة عادلة ، واذا اخطاه ولو قيد انملة رايته يضطرب في حال دعوته كالريشة تخفق بها الرياح اينما تصرفت ، وقد رفع شعيب عليه السلام نفسه ونزهها ان تؤم غرضا من الدعوة سوى الاصلاح فقال (ان اريد إلاّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله) ويرشدنا قوله تعالى (قل لا اسالكم عليه اجرا ان اجري إلاّ على الله) وقوله تعالى (اتبعوا من لا يسالكم اجرا وهم مهتدون) الى ان استشراف الداعي لما في ايدي القوم وطموح نفسه الى جزاء ياخذه في جانب ارشادهم مما يقدح في صدقه ويدخل الريبة في اخلاصه

لا يبلغ الداعي مقام الاخلاص إلاّ اذا بلغ به حب العمل الصالح والقول الصالح الى ان ينزعج لرؤية الفساد وسماع الباطل كما يفزع اذا فاجاته رزية في ماله او ولده

ولا يدخل في زمرة المصلحين حقيقة من يظهر بدعوى الانتصار للعدالة ويشهر البغضاء لمن يروم العبث بكرامتها ثم يبصر مرة اخرى قوما يعمدون لبعض الحقوق فيغتالون عنقه ويوارونه

خوف الفضيحة فيتبسم لصنيعهم تبسم المستبشر و يساعدهم على دفنه ولو بحثية من تراب

ما ذا حمله على حب العمل بالحق والانتصار له اولا ؟ ثم ما ذا بعثه على خذلانه والارتياح لازهاق روحه ثانيا ؟ هو ان اقامة الحق في الاولى تعود عليه بمنفعة · واطفاء نوره في المرة الاخرى لا يذهب له بحظ من لذائذه العاجلة !

ومن الناس من يضمر في نفسه لبانة لا تنالها يده إلّا بمساعدة قوم فينصب اسم الاصلاح شراكا لاستعطافهم والتفافهم حوله فاذا ضحك الاقبال في وجهه وحان قطاف امنيته اقلع عن معاضدة العدل وعرى افراس الدعوة و رواحلها

ولما تهافت كثير من اصحاب الضمائر المعتلة على منصب الاصلاح واجتهدوا في كتم اسرارهم بغاية ما يستطيعون اخذ الناس بالاحتراس ممن ينتدب لهم في زي مرشد ابلغ من محاذرتهم للمجاهر بارادة العنت والاعتساف · فاخو العشيرة اذا برز لهم في شعار ناصح امين انخدع لظاهر اقواله اهل الغباوة والتبس حاله على كثير من اهل النباهة فيجد سبلا مفتوحة ونفوسا متهيأة لقبول ما ينفثه في زخرف كلامه و يكنه تحت اسم الاصلاح من الاغراض السيئة فيكون كيده اقرب مصابا وانفذ رمية من خطر المبارز لهم بالعداوة والشقاق فان من يكشف لهم عن بطانة صدره لا يجري في خاطره ان يرميهم بمكائدة تحت غطاء الستر ولو رامهم بها لوجدوا من شعورهم بطويته ما يحملهم على اساءة الظن به و يحرسهم من الوقوع في حبائله · ·

اما العداة فقد اروك ظنونهم واقصد بسوء ظنونك الاخوانا

والتمييز بين من اجمع همته على الاصلاح صادقا ومن لبس قميصه عارية لدنيا يصيبها او وجاهة يتباهى بها انما تهدي اليه الفراسة المهذبة والقياس الصحيح

واذا ابصرنا رجلا ذا يسار ولم يظهر في طبيعته حرص على نماء ما بين يديه من المال او قام يدعوا قوما ليس من دابهم بسط اكفهم بصلة الدعاة فما كان ينبغي لنا ان نرميه بظن الاحتيال على مشاركتهم في تراثهم واصطياد ما في خزائنهم من زينة الحياة

ويدلك على سلامة ضميره من طلب السيادة واتساع الجاه ان ينشا في بيت فاضل ويحوز في الشرف منزلة عالية فيقوم وهو يشعر بان مجاراته لقومه وارخاء الجفن عما يشاهدهم عليه من العوج يزيده مكانة عند عامتهم ويرفعه في اعتبارهم درجة فيصدف عن مداجاتهم ويقارعهم بالحجة وعرض شمس الحقيقة على ابصارهم وهم لها كارهون

وينبئنا بسيرته الخالصة ان ينادي قومه للاصلاح سنين متطاولة ويتمادى في سعيه الحثيث الى آخر رمق من حياته بدون ان تفل عزيمته بالتوائهم عن اجابته ومقابلتهم لصنيعه بالكفران اذ الشان فيمن انطوت نيته على غرض ان يعمل الوسيلة لتحصيله ثم ينتظر ما ذا يترتب عليها من النتيجة فاذا بطا نجاحها ولاحت له امارات الخيبة والاخفاق قصر المسافة وصرف وجهته الى وسيلة اخرى

والذي يواصل سعيه وينفق معظم حياته في الدعوة وان

وصفناه بسلامة النية وارادة الخير لقومه لا ننعته باسم المصلح إلّا اذا اعتدلت افكاره وصحت تعاليمه فمن الدعاة من تطيب سريرته ويخلص في قصده ولكن يخونه قلة بضاعته في حفظ نصوص الشريعة او اختلال فهمه في التطبيق

﴿ آدابها ﴾

ان ردع الناس عن الدخول في شعاب الباطل والبلوغ بهم الى مكان السعادة مركب عسير ومسلك وعر لا يمر فيه على استقامة إلّا من بلغ الامد في جودة الفكر وسعة البيان لينظر في دعائه الى ما يوافق اذواق الامة وياخذ باميالهم من الحكم البالغة والوجوه المؤثرة

يتخير الداعي حجة تبلغ بقوتها الى ان تفيد يقينا لا ريب فيه او ظنا غالبا وقناعة في النفس قال تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) فالمراد من الحكمة الحجة المفيدة لليقين · ومن الموعظة الحسنة الامارات الظنية والدلائل الاقناعية · ومن المجادلة بالتي هي احسن الدليل المؤلف من مقدمات مسلمة عند المنازع · وفصل الغزالي في كتاب الاقتصاد هذه الانواع من الحجج وقسم المخاطبين الى ثلاثة طبقات وعين لكل طبقة نوعا قال والبرهان يخاطب به الاذكياء والخطابة يخاطب بها العوام لانهم لا يفهمون البرهان والجدل لا يخاطب به إلّا المعاندون في الاعتقاد لانهم لا يرجعون عن مذهبهم بالموعظة · ولم يرتض الشيخ ابن تيمة تفسير الآية

بهذه الطرق المنطقية وقال في رسالة معراج الوصول بل الحكمة هي معرفة الحق والعمل به فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة فيبين لها الحق علما وعملا فتبلغه وتعمل به واخرون يعترفون بالحق لكن لهم اهواء تصدهم عن اتباعه فهولاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل والدعوة بهذين الطريقين ممن قبل الحق، ومن لم يقبله فانه يجادل بالتي هي احسن ثم قال والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم لها كما هي الطريقة الجدلية عند اهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس وهي برهانية وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها

ومن ادب الدعوة الرفق في القول وتجنب الغلظة والكلمة الجافية فان الخطاب اللين ينزل بالنفوس النافرة ويجذبها الى الرشد والاصغاء الى الموعظة قال تعالى (اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى) ويندرج في سلك هذا صرف الانكار الى غير معين كقوله صلى الله عليه وسلم في النكير على اهل بريرة وهم معروفون عنده باعيانهم (ما بال رجال يشترطون شروطا ليست في كتاب الله) وقوله صلى الله عليه وسلم (ما بال اقوام يتنزهون عن الشيء اصنعه فوالله اني لاعلمهم بالله واشدهم له خشية) وشكى اليه رجل من معاذ بن جبل حين كان يطيل بهم الصلاة فاشتد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يترك عادته الجميلة ويخاطب معاذا على التعيين بل عمم في الموعظة وقال

(ايها الناس انكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف فان فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة)

ومن امثلة هذا الادب توجيه الانكار الى نفسه وهو يعني السامع كقوله تعلى فيما يقصه عن رجل يقال له حبيب النجار (ومالي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون اني اذا لفي ضلال مبين) فانه اراد بهذه المقال تقريع المخاطبين على الاعراض من عبادة خالقهم والعكوف على عبادة غيره فاورده في صورة الانكار على نفسه تلطفا في الخطاب واظهارا للخلوص في النصيحة حيث اختار لهم ما يختاره لعقيدته

ومنها ان ينزل نفسه منزلة السائل المتطلب للحقيقة ويقيم الحجة في معرض الاسترشاد حتى تلج في فهم المخاطب قبل ان يشعر بمراده فيتعاصى عن الاصغاء اليه كما فعل ابراهيم عليه السلام في محاجة قومه المشار اليها بقوله تعلى (اذ قال ابراهيم لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون) وقال تعلى في تعليم رسوله كيف يناظر في الحق (قل الله وان او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين) فان الداعي اذا لم يظهر انه على بينة من امره والقى الكلام بصورة التردد في جهة الهدى فقد جعل نفسه كالمستعين براي المخاطب في البحث عما هو صواب وهدى فتنحل في قلبه عقدة التعصب وربما طمع في استمالة الداعي وانضمامه اليه في المذهب فيقبل على النظر بامعان حتى يمر به الداعي على الدلائل الكاشفة عن الحق الصادع

ومما يسلكه الواعظ من التلطف ان ينادي المدعو بلقب شريف وينعته بوصف من شانه يبعث المتلبس به على الانصاف في المجادلة او الطاعة في الامركما قال تعلى (ياهل الكتاب) (يايها الذين ءامنوا) (ياولي الالباب) (ياولي الابصار) ويتاكد مثل هذا في موعظة الصغير للكبير والمرءوس لرئيسه وقد يفتتح بعض المتادبين بكلمة ائذن لي قال ابن شريح لعمر بن سعد وهو يبعث البعوث الى مكة ائذن لي ايها الامير احدثك قولا وروى له قوله صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم مكة ولم يحرمها الناس) فقال له عمرو ابن سعد نحن اعلم بحرمتها منك فقال له ابن شريح اني كنت شاهدا وكنت غائبا وقد امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ شاهدنا غائبنا وقد ابلغتك فانت وشانك

وياخذ بعضهم في الانكار على من يراه مبطلا نهج الفصاحة في القول فيرميه باللعن والشتائم بقصد الحط من مكانه وابعاد القلوب من الميل اليه ولا يدري ان اعتراض الآراء بذم صاحبها وهجائه مما يلقي بينهما بذور الشقاق الذي نهينا عنه ويبعث المخالف على التعصب لمذهبه والعناد في صحته

وقد وقع في شعور الناس اليوم ان طريقة السباب في المجادلة انما يسلكها العاجز عن اقامة الحجج الدامغة فترى المقالة التي تحرر بسعة صدر وادب مع المخالف اشد تاثيرا من المقالات التي يخالطها السفه والحماقة ، وكذلك تجد من كان على يقين من صحة مذهبه مطمئن الخاطر آمنا عليه من السقوط الى مصرع الباطل فينطق عن اناة واختيار للاقوال الصائبة بخلاف من لم

يكن على بصيرة من رايه فانه ينزعج عند المجادلة ويطيش به الجزع الى ان يقذف بالسباب ويلفظ بالكلام من قبل ان يقيم له وزنا

فان لم ينجح الخطاب برفق وتمادى المفسد على حاله السيئة ترقى المصلح في ردعه واقلاعه عنها الى ما هو اشد اثرا من قول اويد على سبيل الترتيب فان من الجهلة من لا يكف عن المناكر طوعا ولا يتحول عنها إلّا بسلطة قاهرة فلا يترك سائبا كالبهيمة ترعى به شهواته حيث اصاب بل يقبض على شكيمته ويحال بينه وبين ما يتلبس به من الفساد ومن خشي من تغييرة بالقوة فتنة قتال او اشهار سلاح رفع القضية الى اولي الامر

ويجري في سلك هذا ان يناجيه بالنصيحة سرا ابقاء للستر عليه وجلبا لانقياده فكثير من الناس من اذا دعي في علن ولم يدع من وراء ستار اخذته العزة وثنى عطفه عن الاستماع او الامتثال . فاذا تصامم عن قبولها في حال الخلوة القيت عليه جهرة لعل الاعلان بحاله في بعض المجامع يرده عن جماحه ويكسر من طغيانه خوف انتشار الفضيحة وسوء السمعة قال تعلى في قصة نوح عليه السلام (قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا) الى ان قال (ثم اني دعوتهم جهارا ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا) ومن حكمة الجمع بين الاعلان والاسرار ازالة ما يقع في ضمير المدعو من تهمة الداعي بانه ما اراد من الدعوة علانية إلّا التشويه بعرضه ومجرد الفضيحة له

ومن النافع ان يكون الدعاء الى المطالب العظيمة بطريق التدرج كان يبتدي المصلح بما هو ايسر عملا واقرب الى معتاد الامة

او اظهر حكمة لعقولهم وعلى هذه القاعدة وضع الاسلام سياسته مثل ان امر بالصلاة وسكت لهم عن الكلام فيها ثم حرمه وامرهم بالانفاق على وجه التطوع ثم شرع لهم عقب ذلك فريضة الزكاة . ونبههم الى مفسدة الخمر بقوله (ويسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس) ثم منعها منهم في حال الصلاة خاصة بقوله لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) وبعد هذا حرمه جملة فقال يايها الذين ءامنوا انما الخمر والميسر الآية . وروى من بعض الصحابة انه قال لو جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا فما كنا ندخل في الاسلام ولكنه دعانا الى كلمة واحدة فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الايمان قبلنا ما وراءه كلمة بعد كلمة على سبيل الرفق الى ان تم الدين وكملت الشريعة . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز ان ابنه عبد الملك قال له ما لك لا تنفذ الامور فوالله لا ابالي لو ان القدور غلت بي وبك في الحق فقال له عمر لا تعجل يابني فان الله ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالثة وانني اخاف ان احمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة وتكون من ذا فتنة

ويلحق بهذا ان يقصد الداعي الى امر فيه مشقة فيورد امامه تمهيدا يخفف وقعه ويهون كلفته على النفوس ومثال هذا ما سلكه القرآن في التكليف بفريضة الصيام حيث شرعه اولا مبهما فقال (يايها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام) ثم اشعرهم بقلة ايامه في الحساب فقال تعلى (اياما معدودات) ثم فرضه على وجه التعيين فقال (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن) الخ الآية

وكذلك صنع عند الترغيب في الصبر على الاذى ومقابلة الاساءة بالعفو على وجه الكرم حين كان صعب المركب شديد الاثر على الطباع فامر بالعدل في المقاصة وعدم الزيادة على المثل بقوله تعلى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ثم بين في قوله تعلى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ان الاكمل لهم الاغضاء عن جزاء السيئة وترك المواخذة بها فان فضل التحمل من مآثر الحلم ومظاهر الرحمة وهما افضل واحب من القسوة والمبادرة الى الانتقام ثم قال تعلى (واصبر وما صبرك إلّا بالله) فصرح بالترغيب فيه على اسلوب ابلغ ووجه الامر به الى رسوله صلى الله عليه وسلم الذي هو اقوى على التخلق بالفضائل واسرع همة الى القيام بالتكاليف ليجد الناس من متابعته والتاسي بسيرته سهولة في الطاعة ونشاطا لمكارم الاخلاق وليستيقنوا من اسناده الى اكمل الخليقة ان الصفح مع القدرة ضرب من الشمائل البالغة الى الغاية القصوى في الكمال

وقريب من هذا ان ياخذ في تقرير المصالح بوجه عام حتى يانسوا لها وتبذر في قلوبهم العلم بطرق الخير على سبيل الاجمال ثم يندبهم الى آحاد الاعمال المندرجة في ضمنها ببيان وتفصيل فان الغالب على طبائع البشر التسليم بالقضايا الكلية وتقل منهم المنازعة في صحتها واعظم ما يقع منهم الانكار والاختلاف في المسائل الجزئية واحكام النوازل المعينة وعلى هذا النمط ادار الاسلام سياسته فاسس معظم قواعده العامة في بداية الوحي بمكة وشرع اكثر الاحكام الفرعية بالمدينة المنورة

ومن حسن السياسة ان لا يجهر برايه الصريح في صدر مقالة

ويبتدي بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني القريبة من الغرض ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل وياخذ في القرب من ايضاحه شيئا فشيئا حتى تستانس به افكارهم وتهدا له خواطرهم اذا افصح عنه . وعلى هذه الطريقة جرى الرجل المومن من آل فرعون فبعد ان كان يكتم ايمانه وهو يحب ان يظهره ويدعو قومه الى مثله وكان يخشى من التصريح بعقيدته بادرة غضبهم او انتقامهم منه اغتنم وقت اجماعهم على قتل موسى عليه السلام فرصة وطفق ينكر عليهم في ذلك وتخلص الى ان دعاهم الى الايمان بما ارسل به دعوة ظاهرة قال تعلى (وقال رجل مومن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاكم بالبينات من ربكم) فاتحهم بالانكار على قتله وهو لا يدل على انه مصدق برسالته اذ قد ينهي العاقل عن سفك دم الرجل او اضطهاده وهو من ابغض الناس اليه حذرا مما ينشا عن الاعتداء عليه من الفساد ودل بقوله (ان يقول ربي الله) على ما بعث به من عقيدة التوحيد واوما الى انه لم يجئ شيئا نكرا يستحق به هذه العقوبة الصارمة وذكرهم بقوله (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) في المعجزات القائمة على صدقه في دعوى الرسالة وليس في هذه المقالة دعوة صريحة الى تصديقه والطاعة اليه او اعتراف واضح باسلامه له ودخوله في جملة انصاره لا سيما حين عزل نفسه عمن جاءتهم البينات واضاف مجيئها اليهم خاصة ثم استرسل في موعظته الحسنة سالكا طريق التوجيه وابراز الارهاب في صورة الاحتمال ثم التعريض بفساد نحلتهم الى ان صدع لهم ببطلان معتقدهم ودعاهم

الى دين الحق بالقول الصريح قال تعالى فيما يقصه عنه (وياقوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لاكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم وانا ادعوكم الى العزيز الغفار) قد يسكت المرشد عن بعض ما يكون حقا او يطلق عليه عبارة مجملة او ذات وجهتين اذا لم يساعده الحال على ان يصدع به في اوائل الدعوة وهل يسوغ له ان يصرح باقوال ليست من قبيل الحق بقصد ان يتالف بها اصحاب العادات والمذاهب الزائغة ويستدرجهم الى ما يورده بعدها او يدمجه في اثنائها من الحقائق والدلائل الفاضحة لمعتقداتهم واوهامهم ؟ زعم الرازي صحة هذا المسلك فعده من حكمة المتشابه في التنزيل وفهم على ذلك ما جاء في القرآن من قول ابراهيم عليه السلام حين حاج قومه بالنجم والقمر والشمس (هذا ربي) وقد ذكر المحققون للمتشابه حكما اظهر كما فهموا قول ابراهيم عليه السلام على غير هذا التاويل . ويحسن بالداعي ان يتخير من الالفاظ السائغة والتراكيب المحكمة ما تقبله الاذواق وترتشفه الاسماع بسهولة فلرونق العبارة وجودة التصرف في الاسلوب تاثير زائد على ما تفعله قوة الحجة وصراحة المطلوب ويزيد المقال او الخطبة حسنا ان تكون من انشائه وصنعة تاليفه فان الجمل التي ينزع القائل معناها بنفسه ويسبك عباراتها بطبعه تكون ابلغ تاثيرا في نفوس السامعين واجلب لداعيهم حيث تصدر عن احساس وارادة قوية ، ويمكنك ان تعرف مقدار احساسه وقوة ارادته مما تشاهده في ظاهر هيأته من غضب وتبسم ورفع صوت وخفضه وعبوسة جبين وطلاقته الى غير ذلك

من الاثار النبي لا تشاهدها على ظاهر الناقل او المترجم لكلام غيره

ومن الطرق النافعة ان يسبق المصلح الى العمل بما يامر فان اقتداءهم بافعال المرشد اشد من طاعتهم لاقواله . واعتمد في هذا على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في شرع الاحكام فكثيرا ما كان يصرح بالاذن في اشياء فلا يبادرون الى فعلها ويستمرون على الانكفاف عنها حتى يقررها بالعمل ثانيا كما امرهم وهم على سفر بالافطار في رمضان وبقي صائما فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر فاتبعوه وقتئذ وافطروا . واذن لهم في نكاح من كن ازواجا لادعيائهم فكبر عليهم ان يخرقوا سياج هذه العادة حتى تزوج صلى الله عليه وسلم بزينب بعد ان فارقها مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه

ومن السنن المعهودة لاستلفات المسرفين وجلب دواعيهم الى مناهج الصلاح بسط المعروف في وجوههم وايثارهم بشيء من متاع هذه الحياة فلا جرم ان مواجهتهم بصنع الجميل ومصافحتهم براحة كريمة مما يصرف قلوبهم نحو الداعي ويمهد له السبيل في قبول ما يعرضه عليهم من النصيحة لان النفوس مطبوعة على الميل الى من يلبسها نعمة ويفيض عليها خيرا ولهذا ذكر القرآن في مصارف الزكاة جهة المولفة قلوبهم .

﴿ آثار السكوت عنها ﴾

ان سكوت القادرين على الارشاد وبقاء اخوان الباطل يترددون على نوادي البدع والمنكرات علة تفضي الى انتشارها وسريان وبائها الى غالب الافراد فينزع عنهم الله لباس نعمه

ويخرجهم عن مصب رحمته الى مواقع المصائب في الدنيا زيادة عما يطوقونه من العذاب الهون في دار الجزاء قال تعلى (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) واذا انتشرت المحدثات والفواحش وانفتحت من جهة شومها ابواب الباساء والضراء دخل في مصابها المجرمون والصالحون قال تعلى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فلا يظن الذين يعملون الصالحات في انفسهم ان اقبالهم على شانهم ودخولهم في زوايا العزلة عن ارشاد الضالين يجعلهم في منعة ومنجاة من سوء المنقلب الذي ينقلب اليه الفاسقون فالذي جرت به سنة الله في خلقه ان وباء الخبث اذا دخل في ارض وظهر في اكثر نواحيها لا تنزل عقوبته بديار الظالمين خاصة بل تتجاوزها الى قريب منها وترمي بشرر يلفح وجوه جيرانهم الذين تخلوا عن نصيحتهم واطرقوا رءوسهم عن مناكرهم ابتغاء مرضاتهم او استراحة من عناء التعليم او التذكير

ويصح ان يراد بغير الظالمين الذين تلحقهم الفتنة من لم يلبسوا ايمانهم بفسق ولو بنحو ترك الامر او النهي فانك تجد فيما تطالعه من انباء الامم الماضية ان الامة التي يجوس خلالها الظلم والفساد حتى يلج حبه في قلوب روسائها تنزل عن عرش عزها الى مهاوي الذلة والاضطهاد او تسلب نعمة وجودها بقارعة سماوية ، وما كان من جنس هاتين العقوبتين في الدنيا قد يتناول الافراد الذين بذلوا جهدهم في نصيحة قومهم فرفضوها من اسماعهم وشدوا قلوبهم عن الاصغاء اليها كما يتناول الصبيان ومن لا قدرة له على الجهر

بالنصيحة على وجه القضاء السابق روى في الصحيح عن زينب بنت جحش قالت قلت يارسول الله انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث . وعن ابن عمر انه سمع اباه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انزل الله بقوم عذابا اصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على اعمالهم .

ومن البلية في سكوت العلماء ان العامة يتخذونه حجة يستندون اليها في اباحة الاشياء او استحسانها فاذا كشفت لهم عن بدعة واوضحت لهم الدليل على قبحها كان جوابهم انهم فعلوها بمرأى او مسمع من الشيخ فلان ولم يعترض فعلهم بانكار . ولو تلوت عليهم آية او رويت لهم حديثا او ابلغتهم نصا عن الامام الذي يحق تقليده لاجابوك بان فلان ذو معرفة واسعة فلا تفوته الاحاطة بما نقلت ، وما سكت او استحسن إلّا لتاويل ظاهر او دليل راجح

ومن اثر التهاون بالارشاد ان يتمادى المفسدون على عمل السوء والمناكر الى ان يالفوا ناديها وتتخدر احساساتهم بالادمان عليها فلا يكادون يشعرون ببشاعة مذاقها وسوء عاقبتها حتى اذا تعرض لهم الحق بوجهه الواضح واستقبلهم بصورته الجميلة جفلت عنه طباعهم ولفظته اذواقهم لاول نظرة كما ينفر ذو البصيرة المنورة من سواد الباطل

﴿ الاذن في السكوت عنها ﴾

انما يسقط عن المكلف فريضة النصح والتصريح بالحق في موضعين احدهما ان ينشا عن امره او نهيه مفسدة اعظم . عملا بقاعدة ارتكاب اخف الضررين اذا تعارضا ومن شواهده ان النبي

صلى الله عليه وسلم كره من الصحابة نهيهم للاعرابي حين بال في المسجد وقال لهم (انما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) فالبول في المسجد فساد ظاهر وفي قطعه عن البائل مفسدة اكبر منه ،
ويماثل هذا ان يكون صاحب الضلالة ممن يطغى على قول الداعي ويستنكف ان يكون طائعا له فيأخذه للاعجاب بقوته الى ارتكاب جهالة افظع من الاولى ليغيظ الآمر ويتظاهر بالغلو في مخالفته

ولا نعد في هذا القبيل ان تجري عادة العامة بترك سنة او فعل بدعة فنسكت عن صنيعهم او نتمحل في تاويله والفتوى بصحته حذرا من اضطراب افكارهم ووقوعهم في حيرة من امرهم فلا مرية ان التحير في الراي خير من الاصرار على ضلالة لانه محرك الى البحث واقرب وسيلة الى العلم

ولا تكون المخافة من سوء فهم المخاطب ووقوعه في شبهة عذرا لكتم ما فرض الله معرفته لانه يلائم كل العقول المتاهلة للتكليف وانما يقوم معذرة للسكوت من الحق الذي لم يكلف الناس بعلمه وهو المراد بقول علي بن ابي طالب رضي الله عنه (حدثوا الناس بما يفهمون اتحبون ان يكذب الله ورسوله) ومثال هذا حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم (ياعائشة لولا قومك حديث عهدهم بكفر) وفي رواية بجاهلية (لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون) والذي تحاماه صلى الله عليه وسلم ان يظنوا لقرب عهدهم بالاسلام انه غير بناءها لينفرد بالفخر منهم

(ثانيها) ان يجره الى مكيدة ويلحق به ضررا وعد الامام الغزالي من ذلك الاستخفاف به على وجه يقدح في مروءته وراى الشيخ ابن عرفة ان خوف العزل من الخطة لا يعد عذرا يبيح لصاحبه ترك النهي عن المنكر · لان مدد الرزق غير مقصور على وظيفتها ، ولذة السلطة والجاه لا تدخل في الاغراض الشريفة لذاتها او الغايات التي تنظر اليها شريعة الاسلام نظر الراغب في حصولها وظاهر ان هذه الفتوى تفهم على حال ما اذا رجي نجاح موعظته ولم يقو في ظنه ان تذهب مقالته ضائعة

فاذا اعتقد الداعي الى الخير بما يحيق به من المكر والبلاء من اجله فهو في سعة واختيار من تحمل الاذى او طلب السلامة فان شاء اخذ بالعزيمة ورفع صوته بالترغيب او الترهيب وان شاء تمسك بالرخصة واعرض عن الجاهلين

وقد استحب جماعة من السلف لقوة غيرتهم على العدالة ورغبتهم في الصالحات ان ياخذوا بالعزم ويحافظوا على الجهر بالارشاد وان كره المفسدون جهرهم واذاقوهم عذابا اليما وقصصهم في هذا الشان كثيرة لا يضبطها سفرولا تدخل تحت حساب ، واما قول ابي هريرة رضي الله عنه (حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين (نوعين من العلم) فاما احداهما فبثثته لكم واما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم) فمراده بالوعاء الذي كتمه مثل اخبار امراء الجور وبيان اسمائهم واحوالهم ولو كان هذا الوعاء من قبيل ما اوجب الله معرفته من احكام وعقائد لم يسع مثله إلا بيانه

﴿ اسباب اهمالها ﴾

ما بال الرجل يعرف مناهج الصلاح و يبصر فريقا من قومه يتهافتون على عماية و يهيمون في جهالة ولا تستفزه الهمة الى افاقتهم من سكرتهم واراءتهم معالم فوزهم ؟ اذا اخذنا ننظر في الامر الذي يحبس عنانه في ذلك نجده دائرا على اسباب عشرة

احدها المداهنة تحمله على ان يرى المفسدين الذين لا يحبون الناصحين. فيغض طرفه عن حالهم سعيا في مرضاتهم وحرصا على نيل مكانة او اصابة غنيمة ، ومن البلية ان المبطلين اليوم لا يكتفون ممن الجاته الحاجة او دفعته الصدفة الى نواديهم ان يسكت عن مفاسدهم و يتركهم وشانهم وانما يقنعهم ان يساعدهم ليضربوا له بسهم من عملهم او يرمقهم بعين مكحولة بتبسم الاستحسان وهو اقل درجة يستحق بها في نظرهم لقب كيس ظريف

ثانيها ضعف جاشه وقلة صبره على المكاره فيخشى ان لا يرتضي بعض الناس قوله فيضمروا له البغضاء و يصرخوا عليه بكلم السخرية وكم سقت في اثارهم من نصيحة . وقد يستفيد البغضة المتنصح وتعرض الكتاب العزيز لطبيعة الاستهزاء بالمرشدين ونبه على انها عادة مالوفة واذى يعترض في طريق كل مناد الى صلاح قال تعلى (ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين ما ياتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزءون) فاذا لقي الرسل عليهم السلام على شرف منازلهم ورفعة مقاماتهم من سفهاء قومهم الاذية فاغمضوا عنها وجعلوها تحت اقدامهم فلا يسع غيرهم ممن يريد الخير لامته الا ان ينصح لهم ولا

يبالي بمن ينغض اليه راسه او يرجمه بظنون سيئة قال تعلى فيما قصه من موعظة لقمان عليه السلام (يابني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور فقوله (واصبر على ما اصابك) بعد قوله (وامر بالمعروف وانه عن المنكر) ايماء الى ان صفة المصلح ان يكون فسيح الصدر واسع الجاد ليملك بوادر غضبه ويتمكن من كظم غيظه فان موقفه قريب من الاذى ومرمى لشتائم اهل السفاهة فاذا سمع كلمة السوء ولم يضرب عنها صفحا وقع في لجاج ومراء يقطعه عن الوصول الى المرام ويختلس له قطعة من وقته الثمين

ثالثها خلق الشفقة يطغى في فواده ويتعدى حد الفضيلة فيطفئ من حبه لعمل البر ويرده عن الامر بصالح فيه كلفة على المامور ويوخذ النهي عن هذه الخليقة من قوله تعلى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله) فافهمت الاية ان المعتمد عليه في اجراء نظامات الشرع وحدوده انما هو حفظ المصالح واستيفاء الحقوق ولا عبرة بداعي الرافة اذا راغ بصاحبه عن الطريقة المعتدلة . اخرج ابن جرير في تاريخه عن سالم ان عمر بن الخطاب كان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شي جمع اهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير واقسم بالله لا اجد احدا منكم فعله إلا اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

رابعها العداوة بينه وبين الجاهل تقدح في ضميره فتمسك لسانه عن نصيحته وانذاره ليتمادى في بدعة وعمل يهوي به في

خسران ، ولم يدر هذا البائس انه اردى بنفسه في هاوية من النار حيث لوث ذمته برذيلة الغش واهمل ما اوجبه الدين من النصيحة

خامسها ان يكون المستوجب لامر الداعي او نهيه مثل اب مطاع او معلم محترم فيصده الحياء منه والاحترام لمقامه ان يشافهه بالموعظة المشعرة بنسبته الى الجهل او الخطا ، وفيما قصه الله علينا من موعظة ابراهيم عليه السلام لازر وتسميته ابا ما يرشدنا الى ان الابوة لا تمنع من الارشاد ولكن يستحق الاب من ادب الخطاب ولطف الموعظة اكثر ما ينبغي لغيره ، وفي نبا موسى والخضر عليهما السلام واتباع الاول للثاني بصفة متعلم ثم انكاره عليه خرق السفينة وقتل الغلام واقامة الجدار عبرة للمعلمين واذن لهم بان لا يتحرجوا من خطاب متعلميهم في امر بمعروف او ازالة منكر

سادسها الخشية من ان يخالط نيته رياء فيذهب بسعيه عبثا من جهة ثواب الله في الاخرة ، وليس على العاقل سوى ان يجاهد نفسه ويدافعها عن النوايا الفاسدة بما في طوقه ولا يترك الدعوة خصوصا عند ما تتعين عليه او يكون صوت غيره اقصر مدى واقل تاثيرا

سابعها الورع يتغالى به الى ان يتحاشى عن السعي الى محل قول الحق حذرا من الدخول في نادي المنكرات والاقتران باهل الباطل في مجالسهم حكى القاضي في كتاب المدارك ان عضد الدولة فنا خسرو الديلمي بعث الى ابي بكر بن مجاهد والقاضي ابن الطيب ليحضروا مجلسه لمناظرة المعتزلة فلما وصل كتابه اليهما قال الشيخ ابن مجاهد و بعض اصحابه هولاء قوم فسقه

لان الديلم كانوا روافض لا يحل لنا ان نطا بساطهم وليس غرض الملك من هذا الا ان يقال ان مجلسه يشتمل على اصحاب المحابر كلهم ولو كان خالصا لنهضت قال القاضي ابن الطيب فقلت لهم كذا قال المحاسبي وفلان ومن عاصرهم ان المامون فاسق لا يحضر مجلسه حتى ساق احمد بن حنبل الى طرسوس وجرى عليه ما عرف ولو ناظروه لكفوه عن هذا الامر وتبين لهم ما هم عليه بالحجة وانت ايضا ايها الشيخ سلكت سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على احمد ويقولوا بخلق القرآن ونفي الروية وها انا خارج ان لم تخرج فقال ابن مجاهد اذا شرح الله صدرك لهذا فاخرج

ثامنها ان لا يجد مساعدا ممن فيهم الكفاءة لهذا السبيل بان يذروه فريدا ويلووا رءوسهم عن معاضدته وربما ادخلوا في قلبه الياس وسدوا باب الامل في وجهه بدعوى فساد الزمان وعدم افادة النصيحة عند غلبة الفساد . وقد تاخذ المنافسة بعض معاصريه وتحملهم على السعاية به لدى صاحب الدولة ليميت اسمه ويقطع اثره . او يتربصون به حتى ينطق بما لا تعرفه العامة ليكبروا خطيئته لديهم ويستنجدوا بهم على اضطهاد جانبه واطفاء سمعته كما سلكوا مع الشيخ ابي الوليد الباجي انتظروه الى ان اجاز في درسه بحديث صلح الحديبية من البخاري الكتابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا امامه وقذفوه بالكفر واللعنة وتبرءوا منه في اشعارهم حتى قال عبد الله بن هند

برئت ممن شرى دنيا بآخرة   وقال ان رسول الله قد كتبا

تاسعها ان بعض الروساء كانوا يزهدون في شيمة العدل ولا يتنزهون عن المساوي فيوجسون البغضاء لمن يتظاهر بالارشاد خيفة ان يتعرض لسيرتهم او يتطاول الى البحث في سياستهم روى ان ابا عطاء السندي دخل على امير وقته يوما فقال له حدثنا فقال يامير المومنين ان سلطانكم حديث وامارتكم جديدة فاذيقوا الناس حلاوة عدلكم وجنبوهم مرارة الجور فوالله ياامير المومنين لقد محضت لك النصيحة ثم نهض فقال الامير لا يعز ملك فيه مثل هذا ثم ارسل من ورائه من قتله وحمل اليه راسه

وصنيع مثل هذا يورث الخور ويرخي المفاصل عن قول المعروف ولا يبيح للعارف بالخير ان يخلد الى صف الجاهلين بمسالكه ويسكت عنه البتة . وليس له سوى التجنب من الكلام في احوال الروساء ومسائلهم الخاصة حيث اعتقد بان خوضه فيها يسرع اليه بمضرة ولا يامن معه من الوقوع في اسر عقوبة . ولا رخصة له في الصمت عن التذكير جملة إلّا اذا بلغوا غاية التحجير على دعاة الخير والتعقب بالوعيد لكل من ينطق بالحكمة والموعظة ولو لم يتعلق بسياستهم ولعلك لا تجد فيما تطالعه من انباء الدول من بلغت في استبدادها وقبضها باعنة المرشدين الى هذه الدرجة اذ لا يجهل صاحب رئاسة وان اوغل في حب مصلحته الشخصية ان بث الفضيلة ونشر الاداب والحكمة في نفوس المرووسين له مما يدعوهم الى الالفة وحسن المرافقة في انفسهم او مع من يعاشرهم بمعروف ثم ان بسط ولايته ورفع رايته على قوم ذوي معارف

واداب اشرف لمقامه واعلى لسمعته من وضع يده على رووسهم وهم بمكان الانعام في التوحش والجهل بالحقوق

عاشرها ان يجد الداعي في عرضه سيئة فتلقي في صدره الذلة والرهبة من ان يلمزه بها العارفون بنبئها اذا ما تلا عليهم الموعظة واستلفتهم الى صالح اعماله والعادة ان من ينعت برذيلة او تجمح به شهواته الى معصية اذا وقف على نوادي اهل الفساد في ثوب مرشد انشدوه

يا ايها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا
كيما يصح به وانت سقيم
ابدا بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فانت حكيم

فينبغي للعالم ان يقبل على نفسه اولا فيطهر ساحتها ويكمل نقصها حتى لا يكون الخلل في سيرته كالشجا يقف له في لهاته ويمنعه من هداية المسرفين

ويتضح من هذا البيان والتفصيل خطا المتوهمين ان العلة الوحيدة في تهاون العلماء بامر الارشاد ما سبق لهم في معاملة بعض الروساء من القساوة والاستبداد

﴿ ما يدعى الى اصلاحه ﴾

مما لا تنازع فيه الظنون ان الاعمال الظاهرة تصدر على حسب ما يريده العامل وتقدره نفسه في انجازها وهيأة وضعها ، وللعقائد سلطان على النفوس ومدخل في تصريف ارادتها كالاعتقاد

بالاله يمنع الانسان ان ياتي في حال الغيبة ما لو ابرزه لاستحق عليه ذما او ملاما والتصديق باليوم الآخر يطبعه على صنع الجميل والايثار بالبر بدون انتظار جزاء او شكور في هذه الحياة فاذا زاغت العقائد كانت اعمال صاحبها بمنزلة من يرمي بسهامه عن قوس غير مستقيمة

واذا كان في الانابيب حيف ... وقع الطيش في صدور الصعاد

فوجبت على الداعي العناية بما يمحو اثر الاوهام والمزاعم السخيفة ويربط على قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح

وللطباع الراسخة اثر في استقامة الاعمال او اختلال اوضاعها كسجية الكرم تنهض بالامة الى انشاء الجمعيات العلمية وتفتح ايديهم بالمساعدة على المشروعات الخيرية ومثل المسلم يعتقد بفريضة الزكاة وما يناله في تركها من العقاب ثم يقبض يده عن اعطائها مطاوعة لداعية الشح وايثارا للمنفعة العاجلة . واذا كانت السجايا مبدا لكثير من الاعمال ومساعدة على صدورها بسهولة دخل في وظيفة المرشد الدعوة الى نبذ الاخلاق السافلة والتحلي بالاخلاق الشريفة

واصلاح الاخلاق بالمقالات العامة نافع . واقرب الوسائل في تربيتها ان يركبها المصلح في طبيعة كل شخص بعينه فكثير من الناس يتعلم الاخلاق الحميدة ولا يشعر بانه عري عن التخلق بها وقد يتصور معنى الخلق الحسن وضده متمايزين ويلتبس عليه الفرق بين افرادهما في الواقع

وفي الناس من عد التواضع ذلة ... وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وكان صلى الله عليه وسلم يرشد الى مكارم الاخلاق بالحكمة العامة ثم يتولى تربية كل فرد من المومنين بخصوصه فكثيرا ما نرى في الاحاديث الواردة في حسن الخلق ما يصرف الخطاب به الى خاص ويسند فيه الطلب الى معين كقوله لمعاذ بن جبل (احسن خلقك للناس) وقوله لجارية بن قدامة (لا تغضب)

ثم ان العمل لا يكون حسنا في نفسه إلّا باستقامة ظاهره وعدم خروجه عن رسوم الحكمة الدينية فكان من صفة المرشد الاعتبار فيما يصدر من الاعمال من حيث انطباقها على اوضاع الشريعة اذ لا سبيل الى صلاحها غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة اصحابه الراشدين

ولما افتقرت الامة في حفظ بقائها وصلاح عيشها الى جملة من الوسائل كالصنائع وبعض الفنون الحكمية كانت داخلة في واجبات دينها كما صرح بذلك ابواسحاق الشاطبي وغيره من الراسخين في علوم الشريعة فان عظم مصلحتها والخطر الذي ينشا عن اضاعتها واضح في الدلالة على وجوب التعلق باسبابها ولكن الاسلام لم يفتح عين المكلف في كل موضع من مواضع اصلاحها او اعطى لتفاصيلها قواعد كما فعل في قسم العبادات والمعاملات والجنايات وانما ارشد الى اصول مطالبها ثم فوض في وجوه عملها ومعرفة ما هو الاصلح في وسائلها الى الفطر السليمة والعقول الراجحة كما قال صلى الله عليه وسلم في واقعة تابير النخل (انتم اعلم بامور دنياكم) فان التمييز فيها بين الحسن والقبيح من المطالب التي لا تفوت مداركهم ويسعها طوق عقولهم

وقد يسبق غير العارف بالشرائع الى الخبرة ببعض نظامات مدنية ولهذا لم يضع الاسلام حرجا على اخوانه اذا حاكوا غير المسلمين وعملوا على مثالهم فيما يحسن في نظرهم من مقتضيات المدنية وتراتيبها كالصنائع والفلاحة والتجارة وحفظ الصحة وما شاكلها فان اعراضنا عن اخذ ما بايد المخالفين من المعارف والاستنباطات المفيدة في هذه الحياة يفضي بنا كما قال ابوحامد الغزالي الى ان نضرب عن كل صالح سبقونا اليه

ويتعين على المرشد لاصلاح هذا القسم ان يجيد البحث عن احوال الامم الاخرى ويعرف اسباب ارتقائهم وعلل سقوطهم يستعين بها في ضرب الامثلة وتركيب الاقيسة ويؤيد بها الافكار المستقيمة ويثبت بها صواب ماتهديه اليه البصيرة الكاملة

انتهى هذا التاليف الموجز بتحرير الفقير الى ربه محمد الخضر ابن الحسين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين